٢٥

بعض مظاهر الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في نزوى في عهد الإمام الخليلي من خلال "الفتح الجليل"

د. سليمان بن سعيد الكيومي
وزارة التربية والتعليم-
سلطنة عُمان
suliman.alkiyumi@moe.om

ملخَّص:

يصنف كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" ضمن الكتب الفقهيَّة، إلاَّ أنَّه يحوي بين ثناياه مادة تاريخية غزيرة؛ فالمراسلات والفتاوى التي وردت في الكتاب تساعد الباحثين عند تحليلها على استخلاص الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في عُمان، ونزوى تحديدا، خلال حكم الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي (١٣٣٨هـ/ -١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م)، وهو ما تسعى إليه هذه الدراسة. فتسلط الدراسة الضوء على مظاهر الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في مدينة نزوى في عهد الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي كالعادات والتقاليد والمناسبات الاجتماعيَّة والدينيَّة، والزواج، والنشاط الزراعي، وأهم المحاصيل الزراعية التي كانت تزرع في تلك الفترة، وذلك من خلال تتبع وتحليل المراسلات والفتاوى التي وردت في الكتاب. وإذ تتخذ الدراسة من كتاب "الفتح الجليل" معبرا رئيسًا للوصول إلى الأهداف المرجوة إلاَّ أن الدراسة تعتمد كذلك على عدد من المصادر الأخرى التي عالجت تلك الفترة.

كلمات مفتاحيَّة: الإمام الخليلي. الفتح الجليل. الاجتماع. الاقتصاد. الطناء. التبسيل. العملة المالية.

مقدِّمة:

يعد كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" كتابا فقهيا، أو جامعا فقهيا، مهما من جوامع الكتب الفقهيَّة الإباضيَّة. وهو عبارة عن مجموعة من أسئلة موجهة إلى الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي وأجوبة كان يجيب بها السائلين، ومجموعة من المراسلات بينه وعدد من الجهات والشخصيات المعاصرة له. ويتميز الكتاب بتنوع موضوعاته، وبساطة أسلوبه، وعدم التكلف في عرض الجواب، ووضوح المنهج. وطبع الكتاب أول مرة في المطبعة العمومية بدمشق سنة ١٣٨٥هـ /١٩٦٥م، بإشراف الأستاذ عز الدين التنوخي عضو المجمع العلمي بدمشق على نفقة الشيخ سالم بن حمد الحارثي[١]. ويقسم الكتاب إلى مجموعة من الأبواب، يختص كل باب بموضوع معيَّن كالعقيدة، وتفسير بعض الآيات القرآنية، والطهارات، والصلاة، والصيام، والكفَّارات، والحج، والزكاة، والنكاح. ويشتمل الكتاب على بعض قصائد الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي. وبناء على ما سبق، تعنى الورقة البحثية الحالية بالكشف عن الأوضاع الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في مدينة نزوى في فترة حكم الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي من خلال كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل". فقد كانت نزوى هي عاصمة دولة الإمامة ومقر إقامة الإمام وجرت فيها الكثير من الأحداث التي تشير إليها مادة الكتاب.

الحياة الاجتماعيَّة:

تتمثل أنماط الحياة الاجتماعيَّة التي كانت سائدة في عهد الإمام الخليلي في الهجرات إلى شرق إفريقيا وما تخلفه من آثار أسرية سواء على حياة الفرد المهاجر نفسه أو حياة الأفراد الذين يتركهم خلفه في عُمان، لا سيما زوجته. وتتمثل الحياة الاجتماعيَّة - كذلك- في العادات والتقاليد خاصَّة المرتبطة بالسلوك الديني، والشعائر التعبديَّة كتلقين الميت وصلاة السحور.

١) الخليلي، محمَّد بن عبد الله: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، دمشق، المطبعة العمومية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

الهجرات السكانية:

يتضح من الأسئلة والأجوبة الواردة في كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" استمرار التواصل العُماني الشرق إفريقي في عهد الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي، واستمرار حركة الهجرة العُمانيَّة نحو شرق إفريقيا. فتوجد في الكتاب بعض الأسئلة التي وجهت إلى الإمام الخليلي تدلُّ على أن أهل نزوى كانوا على تواصل مع إخوانهم المهاجرين من عُمان إلى شرقي إفريقيا، ولاسيما القاطنين بجزيرة زنجبار. ومن الأسئلة في هذا الجانب:

- سؤال حول جواز صلاة السفر للمقيمين في زنجبار إذا خرجوا من بيوتهم وتجاوزوا فرسخين، ولكنهم بقوا في حدود زنجبار نفسها[١].
- سؤال ورد للإمام الخليلي مفاده: هل المهاجرون من عُمان إلى زنجبار يتخذون زنجبار وطنا إذا كان من يدير أمرها كافر إلاَّ أن السلطان مسلم، ولكنهم لا يتعرضون للأديان[٢]. وقد أجاب الإمام محمَّد الخليلي أن أهل زنجبار لا بأس عليهم في الإقامة بها، لكن القادمين إليها عليهم إقامة دينهم، إلاَّ أنَّه لا يشجع الهجرة إليها ما دام الوضع بها كذلك[٣].

والواضح أن الرجال فقط هم من كانوا يهاجرون إلى شرق إفريقيا بدون عائلاتهم، وكانوا في أغلب الأحيان يصطحبون معهم أبناءهم وأقاربهم من الذكور، وبعد وصولهم إلى الساحل الشرقي لإفريقيا يستقرون في كنف أحد أقاربهم هناك ريثما يقومون بترتيب أوضاعهم المعيشية[٤].

وكان بعض المهاجرين من نزوى إلى زنجبار، عندما يصلون إلى وجهتهم ويطيب لهم المقام بزنجبار، يبعثون برسائل خطية إلى معارفهم بعُمان تتضمن قرارات طلاق زوجاتهم الموجودات في عُمان؛ نظرا لنيتهم في الاستقرار بزنجبار لفترات طويلة، وتحتوي تلك الرسائل على إمضاء الشهود الذين شهدوا على قرار الطلاق

١) المصدر نفسه، ص١٩٢.
٢) المصدر نفسه، ص١٩٢.
٣) المصدر نفسه، ص١٩٢.
٤) ميزون، كوليت جراند: هجرات الحرث إلى أواسط القارة الأفريقية، سلسلة تراثنا، العدد: ٦٦، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٤م، ص١٠.

في زنجبار. وقد سُئل الإمام الخليلي عن صحة ذلك، وهل يقع الطلاق في هذه الحالة. فأجاب: "إذا كان خط الشاهد معروفا فلا بأس، أمَّا إذا كان غير ذلك فإنِّي لا أستطيع الحكم في هذه المسألة"[١]. وفي المقابل كانت بعض النساء يطلبن من الإمام تطليقهن من أزواجهن الغائبين لفترة طويلة[٢].

ويحوي كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" - أيضا- عددا من الأسئلة الموجهة للإمام محمَّد حول شرعيَّة تزويج نساء هاجر أولياء أمورهن نحو شرق إفريقيا، أو نحو مدن عُمانية، وليس لهن في نزوى سوى بعض أقاربهن كالابن أو ابن العم، فهل يعتد برأي الأقارب في تزويج المرأة في حالة عدم وجود ولي أمرها؟[٣]

عادة تلقين الميت:

من العادات المجتمعية الواردة في كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" والتي سُئل عنها الإمام محمَّد الخليلي، عادة تلقين الميت بعد دفنه- التي كان يمارسها بعض الأفراد- حيث يقف أحد الأشخاص فوق القبر ويقول مخاطبا الميت بعد دفنه: "يا فلان بن فلان (ويذكر اسم الميت) اُذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمَّدا رسول الله، وأنك رضيت بالله ربا، وبمحمَّد نبيا، وبالإسلام دينا، وبالقرآن إماما"[٤]. وقد نصح الإمام الخليلي بترك هذه العادة؛ لكونها لا تفيد ولا تنفع الميت بشيء؛ فالميت لا ينفعه سوى عمله الصالح الذي كان قد عمله قبل وفاته، وأمَّا هذا التلقين فغير مستحب[٥].

صلاة السحور في رمضان:

ومن العادات التي كانت موجودة في نزوى خلال شهر رمضان المبارك صلاة السحور، ويستدل على ذلك من الأسئلة التي وجهت للإمام الخليلي حول كيفية أداء

---

١) الخليلي: الفتح الجليل، ص٣١٧.
٢) المصدر نفسه، ص٣٣٣.
٣) المصدر نفسه، ص٢٨٧.
٤) المصدر نفسه، ص٢١٨.
٥) المصدر نفسه، ص٢١٨.

صلاة السحور[١]. وقد أجاب الإمام الخليلي بأن هذه الصلاة من سنن التهجد، ويمكن للمصلي أن يؤديها في المسجد، لأجل عمارة المساجد بالصلاة، ويمكن أن يؤديها في بيته قبل ذهابه لأداء صلاة الفجر؛ لكي يعمر بيته الذكر والعبادة.

الحياة الاقتصاديَّة:

ومن مظاهر الحياة الاقتصاديَّة التي يمكن استنتاجها من كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" تلك المتصلة بالعملات النقدية والزراعة وما ارتبط بها من مصطلحات وممارسات.

العملة المستعملة:

كانت العملة المستعملة والشائعة في نزوى هي (القرش)، بدليل مراسلات الإمام محمَّد الخليلي والأسئلة التي وجهت إليه والمندرجة تحت باب الزكاة وباب الحج وباب البيوع والشفع. وقد ورد في كلٍّ تلك الأبواب ذكر (القرش) كعملة مستعملة في ذلك الوقت[٢]. حيث كتب الإمام رسالة إلى الشيخ الفقيه سالم بن حمد البراشدي تنص على أنَّه أمر له بمبلغ مائتي (قرش): "وواصلك كتاب لسعود نأمر لك فيه عطية بمئتي قرش واستلمها منه، والسلام".

الأنشطة الزراعية:

ارتبطت الأنشطة الزراعية التي ورد ذكرها في كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" بالنخلة، باعتبارها من أهم الأشجار المثمرة شيوعا في البيئة العُمانيَّة لاسيما في نزوى التي تكثر فيها بساتين النخيل. ومن الممارسات المرتبطة بالنخلة التي ورد ذكرها في كتاب "الفتح الجليل" "الطناء" و"التبسيل".

الطناء: ويسمى كذلك طني[٣]، ويقصد به بيع ثمار النخيل أو المزروعات[٤]، وهي لا تزال على أمها الشجرة. والطناء من العادات العُمانيَّة التقليدية القديمة

١) المصدر نفسه، ص٢١٧.

٢) المصدر نفسه، ص٢٥٨، ٢٥٩، ٤٥٥.

٣) المصدر نفسه، ص٢٢٠، ٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٥، ٤٣٤.

٤) الجامعي، محمود بن حميد: قاموس الفصاحة العمانية، ج٢، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٥م، ص٢٢.

وما زالت باقية حتَّى يومنا هذا في معظم مناطق عُمان، ويعلن عن موعد الطناء حين تصبح ثمار النخيل ناضجة. وكان يتم الإعلان عن الموعد بعد صلاة الجمعة أو غيرها من الصلوات على حسب طبيعة القرية، ثمَّ يجتمع الراغبون في الاستطناء (شراء ثمر النخيل) في الوقت والمكان المحددين، حيث يقوم شخص يسمى "الدلال"[١] بالمناداة، فيذكر اسم صنف النخيل المراد بيع ثمره بصوت عال يسمعه الجميع، ثمَّ تبدأ المزايدة من الراغبين في الاستطناء (الشراء) ومن يقدم السعر الأعلى يرسو عليه المزاد. فقد ورد في الكتاب "سئل عن الطناء لفحول النبات قبل استكمال ثمارها، هل يجوز؟ أم طناها محجور، أم لا يجوز أصلا؟ وكذلك طناء الجزر والبصل المستتر في الأرض قبل قلعه؟ أم النهي عنه تعبد لا يسوغ بيعه؟"[٢].

التبسيل: من الأنشطة الزراعية التي نص عليها كتاب "الفتح الجليل". إذ وردت للإمام عدة أسئلة عن (بسر) (المبسلي) هل يدخل ضمن الزكاة أم أن الزكاة تشمل تمر المبسلي فقط؟ وقد أجاب الإمام أن الزكاة تجب في الاثنين: البسر والتمر كذلك[٣]. والتبسيل عمليَّة يتم بها غلي ثمار النخيل قبل أن تصبح رطبا (البسر). و(المبسلي) صنف من أصناف النخيل المشهورة بعُمان، ويتميز ثمرها بكبر الحجم، وبالتالي هو من أكثر أنواع النخيل التي يبسل ثمرها. وكانت هذه العادة منتشرة في نزوى وغيرها من مناطق عُمان. وهي حرفة قديمة يتم بواسطتها إنتاج كميات ضخمة من تمر المبسلي المجفف الذي يتم تصديره خارج البلاد مثل: الهند وشرق إفريقيا، حيث كانت إحدى أهم مصادر الدخل في البلاد[٤].

---

١) مهنة (الدلال) مهنة معروفة في عمان ومحترفة من قبل أناس مخصوصين ومعروفين بها، وأحيانا تكون مهنة متوارثة أسريا. ينظر: السيابي، أحمد بن سعود: أصول بيت المال في عمان وأثرها الحضاري في عهد دولة البوسعيد، ط١، مسقط، مطبعة عمان ومكتبتها المحدودة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٠٤.

٢) الخليلي: الفتح الجليل، ص٢٣٦، ٢٧٥.

٣) المصدر نفسه، ص٢٣٦.

٤) الشيدي، جمعة بن خميس: أنماط المأثور الموسيقي العماني دراسة توثيقيَّة وصفيَّة، مسقط، وزارة الإعلام، مركز عمان للموسيقى التقليدية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٦٦.

المصطلحات الزراعية والاجتماعيَّة المحلية الواردة في كتاب:

صرمة[١]: فسيلة النخلة وجمعها صرم[٢].

أثر[٣]: وحدة تقسيم مياه الفلج، وتعادل حوالي نصف ساعة[٤].

بادَّة[٥]: حصة من مياه الفلج تساوي يوما وليلة[٦].

والمصطلحان السابقان (أثر وبادَّة) يدلان على سعي الإنسان العُماني إلى إيجاد نظام دقيق للري من خلال توزيع ماء الفلج بين المستفيدين منه توزيعا عادلا والاعتماد في ذلك على ضوابط دقيقة نهارية وليلية.

بيدار[٧]: مزارع يعمل بأجر[٨].

السقي بالزجر[٩]: عمليَّة سحب مياه البئر بواسطة قربة كبيرة يجرها ثور، غالبا، فتسكب في حوض كبير تسقى منه المزرعة.

مال المسجد[١٠]: يقصد به الأموال الموقوفة للمسجد وهي غالبا ما تكون أشجار نخيل أو مانجو، وعندما يحين موسم قطف ثمارها تباع الثمار لشخص ما عن طريق المزايدة (طناء) وتستغل أموال الوقف في عمارة المسجد وصيانته. وقد ورد هذا المصطلح في عدة أسئلة وجهت للإمام منها:

- سؤال عن قيام وكيل المسجد بإعطاء أحد الفقراء من غلة مال المسجد، فهل

---

١) المصدر نفسه، ص٤٤٦.

٢) الحبسي، عبد الله بن صالح: معجم المفردات العامية العمانية، ط٢، مسقط، مؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلام، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٨٨.

٣) الخليلي: الفتح الجليل، ص٤٥٢.

٤) الحبسي: معجم المفردات، ص٩.

٥) الخليلي: الفتح الجليل، ص٤٥٢.

٦) الحبسي: معجم المفردات، ص٤٩.

٧) الخليلي: الفتح الجليل، ص٢٣١.

٨) الحبسي: معجم المفردات، ص٥٨.

٩) الخليلي: الفتح الجليل، ص٢٣٣.

١٠) المصدر نفسه، ص٥٧١.

عليه شيء في هذه الحالة؟[1]

- إذا كانت أموال المسجد تزيد عن الحاجة، فهل يجوز أن يشترى بهذه الزيادة كتبا أو تنسخ بها بعض الكتب لطلاب العلم؟[2]

وأجاب الإمام الخليلي أنَّه لا حرج أن يأخذ من أموال المساجد؛ لكي يستعين بها طلاب العلم. ويستنتج من ذلك أن شراء الكتب ونسخها في تلك الفترة ليس بالأمر السهل؛ نظرا لعدم انتشار الطباعة في عُمان؛ لذا كان النسخ بالخط اليدوي هو الوسيلة المستعملة لاقتناء الكتب آنذاك.

خاتمة:

يتضح من هذا العرض عن مظاهر الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في مدينة نزوى في عهد الإمام محمَّد بن عبد الله الخليلي من خلال كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" مدى الأهمية التي تمثلها الكتب الفقهيَّة العُمانيَّة كمصدر من مصادر المادة التاريخية التي يمكن للباحثين والمهتمين بالتاريخ الاستفادة منها. فمن الناحية الاجتماعيَّة يحتوي كتاب "الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل" على معلومات عن الهجرات السكانية لا سيما إلى شرق إفريقيا، وما ترتب عليها من آثار اجتماعيَّة وأسرية. ويحتوي الكتاب -أيضا- على معلومات عن بعض الممارسات الاجتماعيَّة في تلك الفترة خاصَّة المتعلق منها بالجوانب الدينيَّة. وأمَّا من الناحية الاقتصاديَّة فقد تم استنتاج بعض المظاهر الخاصَّة بالحياة الاقتصاديَّة مثل الأنشطة الزراعية التي كان يمارسها السكان، ونوع العملة النقدية المتداولة في تلك الحقبة، والمصطلحات الزراعية المستعملة في اللهجة المحلية العُمانيَّة.

---

١) المصدر نفسه.

٢) المصدر نفسه، ص٥٧٩.

المصادر والمراجع:

- الجامعي، محمود بن حميد: قاموس الفصاحة العُمانيَّة، ج٢، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٥م.
- الحبسي، عبد الله بن صالح: معجم المفردات العامية العُمانيَّة، ط٢، مسقط، مؤسسة عُمان للصحافة والنشر والإعلام، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- الخليلي، محمَّد بن عبد الله: الفتح الجليل من أجوبة الإمام أبي خليل، دمشق، المطبعة العمومية، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- السيابي، أحمد بن سعود: أصول بيت المال في عُمان وأثرها الحضاري في عهد دولة البوسعيد، ط١، مسقط، مطبعة عُمان ومكتبتها المحدودة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الشيدي، جمعة بن خميس: أنماط المأثور الموسيقي العُماني دراسة توثيقية وصفية، مسقط، وزارة الإعلام، مركز عُمان للموسيقى التقليدية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- الطائي، عبد الله بن محمَّد: تاريخ عُمان السياسي، ط١، مكتبة الربيعان للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م.
- ميزون، كوليت جراند: هجرات الحرث إلى أواسط القارة الأفريقية، سلسلة تراثنا، العدد٦٦، مسقط، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٤م.